الوقوف أمام الموت . ومن جهة أخرى فإنهما لم يوجدا أنفسهما لأن نظام الخلق ونظام الوجود نظام العلة والمعلول ولا يمكن أن يوجد شيء من باب الاتفاق والصدفة ، ولا يفنى من باب الاتفاق والصدفة أيضاً . فلا إتفاق في العالم ولا طريق للصدفة في عالم الوجود ، فكل ظاهرة تحتاج إلى علّة فاعلية ، وكل حادثة تحتاج إلى علّة فاعلية . ولا يمكن أن يتنحّىٰ نظام العلّة والمعلول عن عالم الخلق ، لأنّه إذا نقض نظام العلية فيسقط طريق الفكر والاستدلال أيضاً . إذ أن العالم المفكر إنما يرتب المقدمات وينتظر الحصول على نتيجة خاصة من المقدمات الخاصة في ظل نظام العلية فهذه المقدمات هي العلّة في الوصول إلى تلك النتيجة ، وتلك النتيجة معلولة لتلك المقدمات ، فالعلة القريبة لتلك النتيجة هي هذه المقدمات .

إذن إذا لم تكن هناك علاقة علية في العالم فسيكون طريق الاستدلال مغلقاً أيضاً . وذلك المنكر للنظام العلّي كل همّه هو إنكار العلة الفاعلية ، وإلاّ فهو يقبل العلة القابلة والمادة لأنّ إنكارها لا فائدة فيه ولا قبولها يحلّ المشكلة ، ولا الفيلسوف الإلهي يقتنع من أحد بقبوله فقط للعلّة المادية والعلّة القابلة . وجميع البحث المهم محوره العلة الفاعلية حتى إذا كان نظام العلّية يتحقّق ويوجد بدون العلة القابلة (والعلة القابلة يعني المادة) ولكن لا يمكن أن يتحقق نظام العلية بدون العلة الفاعلية ، لأنّه من الممكن أن يصدر فعل من المبدأ وتكون له صورة فقط ولا توجد له علّة مادية كما هو الحال في المجرّدات .

ففي قسم المجرّدات نظام العلية موجود فهي معلولة للواجب تعالى ، فالباري تعالى هو علّتها الفاعلية ولكن ليس لها مادة ، وقطعاً لا يكون لها حينئذ علة مادية ، وهذه الفعلية هي فيض الحق وصادرة من الحق ، إذن يمكن قبول تحقّق نظام العلية من دون العلة القابلة لكن لا يمكن قبوله من